تفسير جزء تبارك

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

وضع هذا التفسير صديقنا الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية . وقد حذا فيه حذو الأستاذ الإمام فى تفسيره لجزء عم من حيث الاقتصار على مافيه الفائدة ويحتاج إليه الحريص على فهم كلام الله وحده. وقد تحققت هذا من التفسير وزارة المعارف المصرية فطبعت منه نيفاً وثلاثين ألف نسخة ووزعتها بين أيدى الطلاب . ويكفى فى التعريف بهذا التفسير ماقاله المرحوم الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فيه (أنه مرجو النفع بما فيه من العناية بتقرير المسائل التى تمس إليها الحاجة ، ولما هو عليه من سلامة الأسلوب وصفاء العبارة) وقال فيه الأستاذ الشيخ محمد بهجة الأثرى كبير مفتشى المعارف فى الوزارة العراقية ، وقد أهدى إليه مؤلفه نسخة منه : (وأفاخر بأن أضعها إلى أمثالها فى خزانة كتبى من أجلاد التفاسير لعلماء الأمة ، ولها عليها جميعاً مزية الجدة فى الرأى وجمال العرض وبراعة البيان) افتتح المفسر مقدمة تفسيره بقوله :

(نحمدك ربنا منزل القرآن . بحقائق الإيمان ، وجليل العبر ، وملهم الأذهان مواضع البيان ، ودقيق النظر ، ونصلى ونسلم على سيدنا محمد المبعوث بأكرم الأديان ، وقاطع البرهان ، من ولد مضر . صلاة وسلاماً تتجددان ، ما تجدد الزمان ، وتعاقب الملوان . ولاح قمر ، ولا أدل على تصوير مكانة هذا التفسير

(كتب المحفوظات فى المدرسة) ....

وهكذا يستمدى ناجى الرسالة على الناشئين من الشعراء وهى المجلة الوحيدة فى الشرق التى لا تشترى الأسماء ولا تنشر إلا ما يستحق النشر فى وقت دأبت فيه جل مجلات الشرق على أن تشترى قراءها بأسماء ضخمة مقدمة ومؤخرة بالألقاب ... وفات ناجى أن الرسالة أستاذ قبل أن تكون مجلة ، وأن قراءها تلامذة قبل أن يكونوا قراء ...

وبعد فما أحب أن أطيل الحديث مع ناجى ، ولكنى أود أن أقول له : لم لم يكتب للرسالة ناقداً وموجها ؟ ! ... لم لم يجاره أولئك « النافخين » بشعره على صفحات الرسالة ؟ ! ...

وبعد فيا صاحب (الليالى القاهريات) ... إنى لأذكر أن الرسالة حدثتنا - منذ زمن - أنك أنكرت على الناس جحودهم لشعرك لفرقته - على ما أذكر - ويومها كنت أرثى لك وأرحم على شعرك ... أفلا تخاف - ياشاعرى - أن ينكر عليك شعراء الشباب هذا الجحود ، فيفعلون بأدبهم مثل ما فعلت بأدبك فى شبابك ؟ ! ... ويومها - ياسيدى - اقسم لك أننا سوف نفقد تلك الروح المذبة الرقيقة التى تسيطر على شعر الشباب -- ! ! ... لقد قالت الرسالة ياسيدى الشاعر فى عددها الأخير على لسان الأستاذ المداوى « إن الرسالة لن تغلق أبوابها يوما فى وجه أصحاب المواهب والملكات »

« أسامة »

إننى أشاطر الأديب « أسامة » تقديره لشعر الدكتور ابراهيم ناجى ولا أرى فى تعقيبه ما يحتاج إلى تعقيب إلا أننى أحب أن أعبر عن مودتى للدكتور ناجى ، تلك المودة التى لا يعجبه أن تمزج بما أكتب عنه أحيانا . . ولكن ماذا أصنع وهو يغرى هذا القلم دائما بما يهوى له من موضوعات طريفة ؟ إنه يغضب منى ، وقد اصطلحنا غير مرة ، ولكن الإغراء يتجدد .. ومالى بدفعه حيلة

وأرجو أن يوسع الشاعر الكبير الدكتور ابراهيم ناجى - صدره ، ويعد نفسه - كما نعده - ملكا أدبيا عاما .. وأن يقبل تحيتى ومودتى واحترامى

عباس خضر

والتعريف بحسنه من أن يسقط تحت مواقع أبصار القارىء هذا النموذج منه : وهو ما حرره المؤلف تعليقاً على آية (كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) فقد قال بعد أن أبان ارتباط معنى الآية بمعنى ما سبقها وأزاح الستار عن معنى القضاء والقدر بما يمكن إليه ضمير القارىء المثقف قال ما نصه :

« على أن المقام رغما وسع كلمة تحب ألا تعوننا عملا بما أمرنا به القرآن من النظر فى الأمم وحالاتها ، ثم الاعتبار ببدايتها ونهاياتها ، فنقول :

أشرنا فى أطواء كلامنا السابق إلى أن البشر قد تجذبهم إلى سعادتهم أو شقاوتهم « جواذب » وإن شئت سميتها « عوامل » : من مثل الملة التى يمارسون شعائرها وأحكامها ، والحكومة التى تسيطر عليهم ، والعائلة التى تربى أطفالهم . والمدرسة التى تعلم أبناءهم ، والمحفل أو النادى الذى يحتشدون فيه للحديث أو السمر أو اللهو أو البيع والشراء أو مختلف الأعمال والمصالح — فالمراد من المحفل أو النادى ما يريده علماء التربية بقولهم « جماعة الأصدقاء والمعاشرين » — والوراثة التى تنتقل إلى أبدانهم دم آبائهم ومزاجهم وتكوينهم الجسمانى ، كما تنتقل إلى نفوسهم طباع أولئك الآباء وغرائزهم وأخلاقهم وتكوينهم الروحانى ، والإقليم الذى يشربون ماءه ، ويستنشقون هواءه ، ويذوقون حره وبرده ، ويقتاتون بمحصولاته . وهذا المؤثر يسميه علماء علم النفس « البيئة الجغرافية » ، ويسمون العوامل الأخرى « البيئة الاجتماعية »

هذه « الجواذب » أو « العوامل » هى التى تعمل فى تكوين الأمم ، وهى التى تعرف بها حالتها الاجتماعية ، ودرجتها فى سلم المدنية ؛ فإن صلحت تلك العوامل واستقامت صلحت الأمم واستقامت فى أفرادها وجماعاتها ؛ إذ ليست الجماعات إلا فرداً متكرراً ، وإن ساءت وفسدت ساءت أحوال الأمم ، وانحط شأنها ، وتقهقر عمرانها

هذه الجواذب هى التى تجتذب البشر إلى ملابسة الخير أو مواقعة الشر ، وتقودهم من أيديهم إلى مواطن السعادة ، أو مواطن الشقاوة ، وهى التى نستدل بها ، ونعنى على أثرها فى معرفة ما هو قضاء الله وقدره فى هذه الأمة ، أو تلك الأمة

فهما رأينا من كمال تلك العوامل وسدادها ، وثبات أمرها ، وحسن نظامها — فهناك فوز الأمة وفلاحها ، وتجلى حكم القضاء والقدر فيها . ومهما رأينا من نقص « العوامل » وخطلها ، واضطراب أمرها ، وقبح نظامها — فهناك هلاك الأمة ودمارها ، وحكم القضاء والقدر فيها

هذه العوامل هى التى يعنى بها الأنبياء والحكماء والمشرعون والعلماء الاجتماعيون ، فيجتهدون فى إصلاحها ، وتقويم أودها ؛ حبا فى إصلاح أممهم ، وترقية شأن شعوبهم ، ولم يأل الدين الإسلامى فى النصح لأبنائه بوجوب توفيرها وتنقيتها من الشوائب ؛ كى تبقى صالحة لسعادتهم فى دنياهم ، ونجاتهم فى أخراهم

قد يقال : إذا كانت هذه العوامل هى مظاهر قضاء الله وقدره فى البشر ، وعلى سلمها ينزلهم ربهم ويصعدهم ، ويشقيهم ويسعدهم ، فأنى لنا الوصول إليها بالإصلاح والترميم ، والتغيير والتبديل ؟ وهل هذا إلا افتئات على القدر ، وتداخل فى وظيفته ؟

والجواب على هذا آيات القرآن نفسها ؛ فإنها إنما أمرتنا بالنظر فى أحوال الأمم والاعتبار بما جرى ؛ لنتمسك بما كان سبباً فى نجاتها وسعادتها ، ولنتجنب ما كان سبباً فى هلاكها وشقاوتها . ونحن فى كلتا الحالتين بالغون ما قضاء الله وقدره فينا « اعملوا فكل ميسر لما خلق له »

وهذه الأمم المعاصرة لنا — معشر المسلمين — ارتفعت وعزت وغلبت بما كان من عنايتها بأمر العوامل المذكورة ؛ فليس الدين لديها اليوم ، ولا طرز الحكومة ، ولا نظام العائلة ، ولا قوانين المدرسة والتربية العامة وسائر مقومات الاجتماع — كما كانت عليه فى عصورها الوسطى

نقول : والاقليم والوراثة كيف يكون إصلاحهما ؟

فأما إصلاح « الاقليم » فيكون بتجفيف المستنقعات ، وغرس الأشجار ، وإنشاء الغابات والحراج ، وحفر الترع ، وجر المياه النقية للشرب

وأما إصلاح « الوراثة » وتحسين حالة النسل والأخلاق فقد أخذ الغربيون فى الأيام الأخيرة يعتنون به ، ويستفيدون مما يرشدهم

إليه العلم الصحيح ، والتجربة القاطعة بشأنه

وهذا ، أو ذاك ، أو ذلك — مما يدخل تحت الطاقة ، ويستطيعه البشر وقد أصبحت المكابرة فيه ضربا من الجهل والغباوة بعد ما رأينا حسن أثره واضحاً جليا فى الأمم التى غلبت علينا ، وأصبحت المتحكمة فينا

وعجيب من مسلم أن يجرؤ على القول بأن فى إصلاح الدين ، أو الحكومة ، أو نظام العائلة ، أو طريقة التعليم والتأليف ، أو سائر عوامل الحضارة والعمران — مخالفة للدين ، أو تدخلا فى وظيفة القضاء والقدر ، وهذا الشارع الأعظم صلى الله عليه وسلم يجعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ركناً من أركان الدين ، وليس هو فى الواقع ونفس الأمر إلا مراقبة دائمة على الدين والمتدينين به ؛ فلا يتسرب إليه أو إليهم ما ليس منه فى شىء فيفسد ويفسدون

فالأمر والنهى إذن إصلاح ، والآمرون الناهون مصلحون وكان بعض العارفين يقول : « ينبغى لأهل كل مذهب فى كل عصر أن يكون فيهم عالم كبير ينقح مذهبهم ، وذلك لأن الأحكام تتغير بتغير الزمان »

ومما يحسن إيراده هنا أن الشارع صلى الله عليه وسلم نبهنا إلى تأثير ناموس الوراثة ، وأشار إلى أن فى إصلاحه إصلاحا للنسل والذرية منذ قال : « تخيروا لنطفكم ، فإن العرق نزاع » يريد تزوجوا كرائم النساء ؛ فإن أولادكم من زوجاتكم يرجعون فى طيب الأخلاق وقبحها إلى أجدادهم من أمهاتهم ، أما رجوعهم فى أخلاقهم إلى أجدادهم من جهة آبائهم فبالطريق الأولى. وليس فوق هذا إرشاد وتعليم لنا فى أن نصلح شؤوننا ، وعوامل اجتماعنا ، حتى ما يظن أنه مما لا يدخل تحت طاقتنا كمسألة الوراثة هذه .

وقال أبو الأسود الدؤلى مخاطبا أولاده :

وأول إحسانى إليكم تخيرى ... لأجدة الأعراق باد عفافها

وبالجملة فإن الدين والعلم والتجربة والمشاهدة اتفقت كلها — وإن خالفها الجهل والتقليد والمكابرة — على أن سعادة الأمم وشقاءها أمران ميسوران لها ، داخلان تحت طاقتها . وليس معنى أن الله يضلها ويهديها إلا أنه تعالى يمهد تحت مواقع أبصارها طريق الهدى والضلال ؛ فهى إذا اختارت لنفسها طريق الهداية اختارته وسلكته بمشيئة الله وإرادته وسابق علمه ، وإذا اختارت لنفسها طريق الضلال اختارته وسلكته أيضا بمشيئته تعالى وإرادته وسابق علمه . وما أحسن ما قاله نبينا صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس ، إنهما نجدان : نجد الخير ونجد الشر ؛ فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير ؟ » ، ويشبه هذا ما قاله الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر : « إن الله أراد بنا شيئا وأراد منا شيئا ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا ؟ »

وأوضح السبل الموصلة إلى سعادة الأمم هو إصلاحها دينها ؛ فلا يكون فيه حشو أو بدعة ، أو تكليف مما لم يأت به وحى ، ولا خبر صادق . ثم إصلاح بقية المقومات والعوامل التى قلنا إنها هى التى تجذب بضبع الأمم إلى مراقى الكمال والعزة والغلبة. كما أن أقرب الطرق التى تأخذ بالأمم توا إلى هاوية الذلة والمسكنة والدمار والاضمحلال — هو ترك الدين محشواً بالبدع، وبما لا يرضى الله ورسوله من الآراء والتعاليم والأقوال البين سقطها ، الظاهر غلطها . ومثل ذلك فى الضرر أن نترك كل قديم على قدمه من أوضاع حكوماتنا ، ونظام عائلاتنا ، وأصول التدريس والتأليف فى مدارسنا ومؤلفاتنا ، وسائر مقومات اجتماعنا . وقد تبين فساد ذلك كله وعدم إيصاله إلى بحابح الحياة السعيدة ؛ فإن جميع ذلك سبل ضلال : بسطها الله تحت مواقع أبصارنا ، وبالغ فى تحذيرنا منها فى محكم كتابه ؛ فما علينا إلا التنكب عنها ، والاستعاذة به تعالى منها ؛ فنكون من الفائزين المهتدين إن شاء الله »

آلام فرتر

للأستاذ أحمد حسن الزيات

هى القصة العالمية الواقعية الخالدة للشاعر الفيلسوف « جوته » الألمانى .

تطلب من مجلة الرسالة وثمنها ٤٠ قرشاً عدا أجرة البريد